التتلمُذ في مرقس
مسيرة "مع" المعلّم على "طريق" الصليب(١)

الأب ميلاد الجاويش المخلّصي

مقدّمة

"إتبعاني، أجعلْكُما صيّادَي بشر" (مر ١: ١٧). بهذه الآية نختصر منذ البداية كلّ الموضوع. يسوع يأمر بأن يُتبع. "إتبعاني"، قالها بسلطان لم يسبق لأحد قبله أن ادّعاه لنفسه. لذا يقرّ علماء الكتاب المقدّس، لا سيّما أولئك المختصّون في البحث عن يسوع التاريخيّ، بأنّ طريقة يسوع في انتقاء تلاميذ له كانت غاية في الفرادة. يحدّد أحدهم، جون–بول ماير، طريقة يسوع هذه كالتالي: يصبح تلميذًا ليسوع من بادر يسوع إلى دعوته آمرًا إيّاه بسلطان أن يتبعه(٢). كرّس ماير قسمًا لا بأس به من الجزء الثالث من كتابه الضخم، يسوع يهوديٌّ على الهامش، للكلام على العلاقة التي كانت تربط يسوع التاريخيّ بتلاميذه، قال: "يبدو أنّ طريقة يسوع في انتقاء تلاميذ له لم تكن غير معتادة فحسب، بل فريدة من نوعها في العالم اليهوديّ المعاصر له"(٣). هذه الفرادة تكمن في أنّ دعوة يسوع لتلاميذه لم تكن خاضعة لحدود الجغرافيا والتاريخ، كما كان عليه الأمر في مدرسة الربّانيّين اليهود، بمعنى أنّ يسوع لم يُقم حلقات دراسيّة منظّمة تتيح للتلميذ عندما ينتهي منها أن يهجر معلّمه وألاّ يبقى قابعًا تحت جناحه، أو أن

---

(١) هذه المداخلة هي توسيع لمقال سبق وظهر في مجلّة المسرّة، آذار – نيسان ٢٠٠٤ (٨٦٨)، ص ٢١٣–٢٢٣.

(٢) John P. MEIER, *Un certain Juif Jésus. Les donnés de l'histoire* III. *Attachements, affrontement, ruptures*, LD, Cerf, Paris 2006, p. 53.

(٣) John P., MEIER, *Un certain Juif Jésus*, p. 54

يترقّى إلى درجة أعلى برتبة معلّم أو ما شابهها. دعوة يسوع تقضي بأن يسير التلميذ خلفه، دائمًا، من دون حدود لا للزمان ولا للمكان.

وبعد الاتّباع تلمذة: "أجعلْكما صيّادَي بشر". القصّة كلّها تكمن في هذا الفعل: "أجعلكما"، من الفعل اليونانيّ γινομαι الذي يعني تلك الصيرورة مع ما تحمل في طيّاتها من مسيرة طويلة من التلمذة والتنشئة.

هذه النقاط يجمع عليها الإنجيليّون الأربعة، كلّ واحد على طريقته. تُرى ما هي الخصائص التي تميّز بها مرقس دون غيره من الإنجيليّين، هو الذي كان في كثير من المواد مصدرًا ذا ثقة لمتّى ولوقا؟ بنحو آخر، بماذا امتاز مرقس عن غيره في مقاربته موضوع التلاميذ؟ كيف قدّمهم لنا في إنجيله، في بدايتهم كما في مسيرة تلمذَتِهم على يد يسوع؟ أين تفرّد فأبدع؟ وأين فضّل من نقلوا عنه في عدم مجاراته لا في أسلوبه ولا في لاهوته؟ لماذا يقسو مرقس أكثر من باقي الإنجيليّين في انتقاده "الاثني عشر"، فنقل خيبات يسوع المتعدّدة منهم؟ وهل من خاتمة فرحة لمسيرته معهم؟ هذه التساؤلات وغيرها سنحاول إلقاء الضوء عليها في هذه المداخلة المندرجة ضمن سلسلة محاضرات في هذا المؤتمر الخاصّ بالإنجيل الثاني.

١- بداية المسيرة: "إتبعاني..." (مر ١: ١٧)

تبدأ مسيرة التلاميذ مع يسوع عند مرقس في ١: ١٦-٢٠. هذا نصّ الدعوة الأوّل: يسوع يدعو من على شاطئ بحيرة طبريّة، زوجين من الإخوة، صيّادين، سمعان وأخاه أندراوس، يعقوب وأخاه يوحنّا. يضع مرقس، كما متّى (٤: ١٨-٢٢)، نصّ دعوة التلاميذ الأوّلين في أولى صفحات إنجيله: ما كاد يسوع يعود إلى الجليل من اليهوديّة، ويبشّر بتمام الزمان واقتراب ملكوت الله (١: ١٤-١٥)، حتّى بدأ يدعو أشخاصًا إلى السير وراءه.

لمكان هذا النصّ إذًا أهمّيّة قصوى. إنّه في أوّل الإنجيل، بل هو العمل الأوّل الذي يقوم به يسوع ما إن بدأ مسيرة التبشير. لم يكن يسوع قد صنع بعد أيّة معجزة ولم يلقِ أيّ خطاب يعطي لكلامه قوّة، فيجذب بالتالي هؤلاء الأشخاص. لوقا، على العكس، أخّر خبر دعوة التلاميذ إلى الفصل الخامس من إنجيله (لو ٥: ١-١١)، حتّى يتيح ليسوع أن يُثبت نفسه من خلال بعض الآيات والأعاجيب. في الإنجيل الثالث، نرى يسوع يشفي حماة بطرس في بيت الأخير وأمام عينيه، فضلاً عمّا فعله في كفرناحوم (لو ٤: ٢٣، ٣١-٣٧)، ممّا جعل خبره ينتشر بسرعة في تلك الناحية كلّها. يبدو لوقا في روايته أكثر إنسانيّةً ومراعاةً للمنطق من متّى ومرقس. لقد راعى متطلّبات الدعوة الإنسانيّة، وما تفرضه أحيانًا من ضمانات مسبقة يجب أن يجدها المدعوّ في شخص داعيه. كلّ هذا لا وجود له عند مرقس، لأنّ ما من معرفة مسبقة عنده بين الداعي والمدعوّين. كان مرقس، في رسمه الصورة الأولى عن يسوع، أكثر جذريّة من لوقا: يظهر يسوع كشخصٍ مركزيٍّ وقويٍّ وجذّاب، لا يحتاج إلاّ إلى بضع كلمات حتّى يجعل بعض الرجال يتركون مقتنياتهم وأهلهم ويتبعونه. وكان مرقس أيضًا أكثر مثاليّة في تفسيره اتّباع التلاميذ هذا المعلّم الجديد: إذا تبعوه فلأنّهم اُجتذبوا بشخصه، وبشخصه فقط، وليس لأنّهم رأوا منه معجزة أو سمعوا له خطابًا.

قوّة الجذب هذه في شخصيّة يسوع يظهرها مرقس مجدّدًا في ٣: ١٣ حيث نقرأ: "وصعد الجبل، ودعا الذين أرادهم فأقبلوا إليه". فعل προσκαλειται المستعمل في هذه الآية لا يعني فقط "دعا"، بل "دعا إليه" "استدعى"، وهو فعل مرقسيّ بامتياز، لا سيّما في صيغة اسم الفاعل كما هو الحال هنا(٤). ما عدا في ١٥: ٤٤، الفاعل دائمًا هو يسوع: هو الذي يستدعي التلاميذ وغيرهم إليه. وتلبية لندائه "أقبلوا إليه"(٥) فورًا ودون تردّد. إنّه تعبير يعكس سلطان يسوع ودوره المركزيّ وإرادته الحرّة في الدعوة.

---

(٤) راجع أيضًا: مر ٣: ٢٣؛ ٦: ٧؛ ٧: ١٤؛ ٨: ١، ٣٤؛ ١٠: ٤٢؛ ١٢: ٤٣؛ ١٥: ٤٤.

(٥) απηλθον كما في نصّ التلاميذ الأوّلين (١: ٢٠).

نظرًا لأهمّيّة نصّ دعوة التلاميذ الأوّلين في موضوعنا (١: ١٦–٢٠)، سنلقي نظرة سريعة على بُنيته، فنرى كيف بنى مرقس خبره هذا. بناه بطريقة متوازية جدًّا، فقابل في لوحتين بين دعوة زوجين من الإخوة. لم يكرّر مرقس مفرداته كلّها في اللوحتين، بل غيَّر في بعضها ليعطي النصّ بعض الحيويّة، وليتجنّب فخّ التكرار المملّ. يوضّح هذا العرض بنية النصّ المتوازية والتغييرات التي طالت مفردات لوحتَيه:

أ: ١٦ وكان يسوع سائرًا على شاطىء بحر الجليل

ب: فرأى سمعان وأندراوس أخا سمعان

ج: يلقيان الشبكة في البحر، لأنّهما كانا صيّادين

د: ١٧ فقال لهما: "اتبعاني أجعلكما صيّادي بشر"

هـ: ١٨ فتركا الشباك لوقتهما وتبعاه

أ١: ١٩ وتقدّم قليلاً

ب٢: فرأى يعقوب بن زبدى وأخاه يوحنّا

ج٣: وهما أيضًا في السفينة يصلحان الشباك

د٤: ٢٠ فدعاهما لوقته

هـ٥: فتركا أباهما زبدى في السفينة مع الأجراء وسارا خلفه

ما الهدف من هذه البنية؟ كلّ شيء في هذا الخبر بُني بطريقةٍ نموذجيّة، لتصبح دعوة هؤلاء الأربعة مثالاً لكلّ دعوة: يسوع يدعو أشخاصًا وهم يلبّون سريعًا النداء. هذه الموازاة لا تراعي الواقع التاريخيّ للحدث بقدر ما تهتمّ بغاية النصّ ووقعه على القارئ. كلّ قارئ، أينما كان، إذا أراد أن يتتلمذ ليسوع، عليه أن يطبّق ما جاء في هذه الموازاة: يسوع يراه (١)، يدعوه (٢)، وهو بالتالي يلبّي

الدعوة (٣)، فيترك كلّ شيء (٤)، ويسير وراء المعلّم (٥). إنّه إذًا نصّ نموذجيّ عن الدعوة(٦).

وفي النصّ أيضًا تفاصيل أخرى مهمّة لا بدّ من ذكرها:

أ- دعا يسوع تلاميذه بينما كان سائرًا على شاطىء بحر الجليل. الجليل هو خزّان الدعوات الأولى، منه يأتي معظم التلاميذ الأوّلين. أمّا شاطىء البحر فهو المكان المفضّل لدى مرقس، كما الجبل عند متّى، هو مكان التبشير المثاليّ واللقاء بالناس والزحمة(٧). لاوي أيضًا دُعي بينما كان يسوع "خارجًا ثانية إلى شاطئ البحر" (٢: ١٣)(٨). للبحر هنا رمزيّة خاصّة: هو مكانٌ عامّ يرتاده الجميع، هو العالم المزدحم، ومن قلب هذا العالم المزدحم، يختار يسوع تلاميذه، من بين الناس والجماهير، ومن أبسط طبقات المجتمع.

إنّنا هنا في قلب معضلة الاختيار الإلهيّ: لماذا اختار يسوع هؤلاء الصيّادين وليس غيرهم؟ ألم يلاقِ يسوع في تجواله مجتمعات أرقى ينتقي من بين أفرادها تلاميذ له؟ بالطبع بلى، طالما عاشر يسوع كبار القوم عند اليهود، من الأغنياء والوجهاء والعلماء والفرّيسيّين والكتبة وأعضاء من المجلس اليهوديّ العامّ... لماذا توجّه أوّلاً نحو صيّادي السمك أو نحو أمثالهم كالعشّارين (لاوي)، وربّما الميليشياويّين من عصابات "الغيورين" المتطرّفة (سمعان الغيور، ويهوذا الإسخريوطيّ ربّما)؟ لماذا الإصرار على مثل هذا المستوى من البشر؟ في هذا بالتأكيد حكمةٌ إلهيّةٌ عميقة الغور. ممّا لا شكّ فيه أنّ يسوع يشبه في عمله هذا

---

(٦) نسجّل هنا هذه المفارقة: بعد هذا النصّ النموذجيّ عن الدعوة، يرسم مرقس لوحة نموذجيّة أخرى عن يوم ليسوع في كفرناحوم، والمعروف بـ"سبت كفرناحوم" (١: ٢١-٣٤).

(٧) كما في ٢: ١٣؛ ٣: ٧؛ ٤: ١؛ ٥: ١، ٢١.

(٨) لاحظ أيضًا العبارة ذاتها "بينما كان سائرًا رأى" (και παράγων είδεν) تتكرّر في نصّ لاوي (٢: ١٤) ونصّ التلاميذ الأوّلين (١: ١٦).

الأنبياء الأقدمين الذين كانوا يقومون أحيانًا بأعمال ذات طابع نبويّ، هي في الأغلب غير مألوفة لكن ذات مدلول مهمّ وعميق. في اختياره صيّادين، أكّد يسوع على حرّيّة الله المطلقة في اختيار من يشاء. فالتلميذ لا يُختار لمؤهلات يملكها تخوّله شرف الالتحاق بجماعة يسوع، بل بنعمة خاصّة ومجّانيّة من المعلّم. يتوافق هذا مع القاعدة الذهبيّة التي تتكرّر في الكتاب المقدّس كلّه: الله يحبّ الكلّ، لكنّه يختار قلّة؛ الجميع محبوبون، لكن ليس الكلّ مختارين. إختار الله هابيل دون أن يهجر قايين؛ إنتقى موسى من غير أن يكره هارون؛ إصطفى داود الصغير دون إخوته الكبار... في الاختيار إذًا خلاف وانقسام: يؤخذ الواحد ويُترك الآخر، يُختار هذا ويُرذل ذاك.

لأجل ذلك نجد أيضًا عند مرقس محاولة دعوة لم تكتمل: ممسوس الجدريّين ما إن شفاه يسوع حتّى طلب أن "يكون معه"(٩)، لكنّ يسوع رفض وأمره بأن يرجع إلى بيته وذويه ليخبرهم بما صنع الله إليه (٥: ١٨-١٩). المبادرة هنا تأتي من الرجل المعافى لا من يسوع، لذلك فشلت الدعوة(١٠). دعوة راسبة أخرى: هذه المرّة، الشابّ الغنيّ رفض تلبية دعوة يسوع باتّباعه

(٩) التعبير نفسه μετ' αυτου موجود في ٣: ١٤.

(١٠) نقرأ في نصّ مرقس: "فلمّا وصلوا إلى يسوع، شاهدوا الرجل الذي كان ممسوسًا جالسًا لابسًا صحيح العقل..." (٥: ١٥). يرى البعض في "جلوس" الممسوس بالقرب من يسوع علامة تبيّن تلمذه على يد يسوع، باعتبار أنّ التلميذ كان يجلس عند قدمي معلّمه (راجع مثلاً حالة شاول مع جملائيل في أع ٢٢: ٣). لكنّ حركة "الجلوس عند القدمين"، الخاصّة بالتلميذ، غائبة عند مرقس، الذي اكتفى فقط باسم الفاعل "جالسًا"، بينما حاضرة بشكل واضح في نصّ لوقا المقابل: "جالسًا عند قدمي يسوع" (لو ٨: ٣٥). أمّا متّى فلم يُشر أبدًا إلى هذه الحركة في نصّه المقابل (مت ٨: ٢٨-٣٤). يدلّ هذا على أنّ لوقا، وليس مرقس، هو الذي أضفى على الممسوس الذي شفاه يسوع صفة التلميذ بإجلاسه "عند قدمي يسوع"، وهي حركة يحلو له أن يصف بها شخصيّاته (حالة مريم في ١٠: ٣٩، وشاول في أع ٢٢: ٣). أمّا اسم الفاعل "جالسًا" الذي اكتفى به مرقس، فقد يكون مجرّد إشارة إلى عمليّة الشفاء المبهر والتغيير الكامل اللذين أحدثهما عمل يسوع في الممسوس: من رجل مضطرب دائم الهيجان إلى رجل "جالس" لابس صحيح العقل.

والسير خلفه، لأنّ ماله كان عائقًا دون ذلك (١٠: ٢١-٢٢). لم يفهم أنّ اتّباع يسوع والعيش معه، وليس بيع الممتلكات، هما الغاية ونقطة الوصول. هذا ما نلاحظه في آ ١٠: ٢١ حيث تتطوّر الأفعال لتفضي في الختام إلى فعل "اتبعني": إذهب – بع – أعطه – يكون كنز لك – تعال – اتبعني. كان سؤال الشابّ قبلاً: "كيف أرث الحياة الأبديّة"، فكان الجواب: "تعال اتبعني". اتّباع يسوع هو أن يعيش التلميذ الحياة الأبديّة منذ الآن. لم يعد تطبيق الشريعة كافيًا ("هذا كلّه حفظته منذ صباي")، منذ الآن عليه أن يعلن فوق كلّ شيء أوّليّة الملكوت المتجسّد في شخص يسوع.

ممّا لا شكّ فيه أنّ يسوع لم يكن الأوّل الذي دعا تلاميذًا لاتّباعه. فالتتلمذ عادة معروفة عند اليهود، لاسيّما عند الربّانيّين. لكنّ التلميذ هو الذي كان يختار معلّمه ليدرس على يده، لا العكس. وكان عليه أن يقوم بخدمة معلّمه خدمة كاملة، ما عدا تلك الأعمال الوضيعة والمذلّة، كأن يحلّ سير حذاء معلّمه مثلاً. يوحنّا المعمدان أيضًا خلّف وراءه تلاميذ (مر ٦: ٢٩). هذا بالإضافة إلى جماعة قمران "الرهبانيّة" التي كان يرأس أعضاءها "معلّمُ البرّ". أمّا في حالة يسوع، فالمعلّم، بقراره الحرّ وإرادته المطلقة، هو الذي كان يختار مَن يشاء، وعلى التلميذ، من ناحيته، أن يلاصق معلّمه من دون انفصال، تاركًا كلّ شيء ليتبعه على نحوٍ قريب وشخصيّ. هذه الجذريّة في حالة التتلمذ ليسوع دفعت أحد العلماء إلى القول: "إنّ المتطلّبات الجذريّة التي وضعها يسوع كشروط لاتّباعه، فريدة من نوعها بين التقاليد "المدرسيّة" القديمة. ليس من تقليد آخر يبلغ فيه مطلب الالتزام هكذا حدّ"(١١).

(١١) " Les exigences radicales mises par Jésus comme conditions pour être disciple sont uniques dans les traditions 'scolaires' de l'Antiquité; dans aucune autre tradition, l'exigence d'engagement n'a atteint un niveau comparable"; cf. R. Alan CULPEPPER, *The Johannine School*, SBLDS 26, Missoula MT, Scholars Press, 1975, p. 225.

ب- لقد برع مرقس، عبر أسلوبه السريع، في أن يجعلنا نتذوّق سلطان يسوع ومهابته: يسوع يرى، وفورًا يدعو. فعل "رأى" (ειδεν)، المكرّر مرّتين في النصّ (آ ١٦ و١٩)، هو أبعد من عمليّة نظر عاديّة. لقد ألبسه مرقس سلطة يسوع نفسها: تكفيه نظرة واحدة حتّى يسبر أعماق محدّثيه، ويُحدث فيهم ما يُحدثه خطاب طويل. يسوع يأخذ المبادرة تجاه من يدعوهم، ولو بنظرة ثاقبة. نفس الاختراق سيحصل مع لاوي وهو جالس على طاولة الجباية: "رآه" يسوع، فدعاه، فقام وتبعه (٢: ١٤). **التتلمذ إذًا أوّله نظرة**. هذه النظرة تجتاح إنجيل مرقس بطوله وعرضه. يسوع "ينظر" إلى سامعيه عندما يريد أن يلفت انتباههم إلى أمر ذي أهمّيّة. نراه مثلاً يلتفت إلى تلاميذه قبل أن يزجر بطرس: "فالتفت فرأى تلاميذه فزجر بطرس..." (٨: ٣٣)، وكأنّه يقول لهم: ما أقوله لبطرس أقوله أيضًا لكلّ واحد منكم(١٢).

ج- سمعان، أحد المدعوّين، خصّه مرقس بلفتة خاصّة. هكذا يأتي الخبر حرفيًّا: "فرأى سمعان، وأندراوس أخا سمعان" (آ ١٦) // "فرأى يعقوب بن زبدى، ويوحنّا أخاه" (آ ١٩). عُرِّف أندراوس بالنسبة إلى اسم أخيه سمعان، المكرّر مرّتين حتّى ولو على حساب أناقة الأسلوب. لم تكن هذه حالة يعقوب مع يوحنّا، إذ استعيض عن اسم يعقوب بضمير متّصل (αὐτου). هذه الترجمة الحرفيّة تبيّن أهمّيّة سمعان وعلوّ شأنه في الإنجيل الثاني. بعد آيات قليلة، نقرأ: "سمعان والذين معه" (١: ٣٦). وفي لائحة الرسل في ٣: ١٦-١٩، يُفصل اسم بطرس عن اسم أخيه أندراوس لكي يُعطى مزيدًا من الأهمّيّة (٣: ١٦)(١٣)، بينما

(١٢) مثلٌ صارخ على لعبة النظر هذه نجده أيضًا في نصّ الشابّ الغنيّ (١٠: ١٧-٢٧)، الذي ترد فيه ثلاثة أفعال مشتقّة من فعل βλέπω فحدّق إليه وأحبّه" (εμβλεψας، آ ٢١)، "فنظر يسوع حوله" (περιβλεψαμενος، آ ٢٣)، "فحدّق إليهم يسوع وقال" (εμβλεψας، آ ٢٧). مثلٌ ثانٍ معبّر أيضًا نجده لمّا سأل يسوع: من أمّي وإخوتي؟ "**أجال طرفه في الجالسين حوله** وقال..." (٣: ٣٤)، وكأنّه يقول إنّ الجالسين حوله هم أمّه وإخوته. راجع أمثلة أخرى في ٣: ٥ و١١: ١١.

(١٣) يعيد متّى ولوقا جمع اسمي بطرس وأندراوس في لائحتيهما (راجع مت ١٠: ٢؛ لو ٦: ١٤).

يبقى اسمَا يعقوب ويوحنّا ملتصقَين كما في ١: ١٩. لبطرس الأوّليّة ليس هنا فقط في هذه اللائحة بل في كلّ مرّة يُذكَر اسمه مع غيره من التلاميذ[١٤]. وهو أيضًا الناطق باسم الجماعة كلّها[١٥]. يرد اسم "سمعان" في مرقس سبع مرّات: ستّ مرّات قبل ٣: ١٦، حيث يعطيه يسوع لقب "بطرس"، ومرّة واحد بعدها في ١٤: ٣٧. بعد ٣: ١٦، لا نجد إلاّ اسم "بطرس" الوارد ١٩ مرّة. لهذا التغيير رمزيّته: "بطرس" اسم جديد لمرحلة جديدة في حياة الصيّاد الجليليّ، اسم يعكس دور بطرس الرسميّ والرياديّ في حياة الكنيسة. وإذا عاد يسوع وناداه في بستان الجسمانيّة باسمه القديم (١٤: ٣٧)، فلكي يبيّن له بأنّ تصرّفه المتخاذل في عدم المقدرة على السهر معه ساعة واحدة في وقت النزاع، إنّما يُرجع به إلى إنسانه القديم غير الجدير بالتلميذ.

د- إنّ التعبير "صيّادَي بشر" (آ ١٧) لا يخلو من الغموض، لأنّه، بحدّ ذاته، ذو صدىً سلبيّ عند اليهود. في العهد القديم، استُعمِلَت هذه الصورة للدلالة على الله الديّان الذي سيصطاد الشعب الأثيم كمعاقبة له[١٦]. لكنّ العهد الجديد طالما رمز إلى الكنيسة بالشبكة، وإلى المسيحيّين، بالتالي، بالسمك الذي "يعلق" في الشبكة. البحر، بدوره، يرمز إلى هذا العالم مع كلّ قواه الشرّيرة والمعادية لله. التلاميذ إذًا هم مَن سيصطادون الناس إلى ملكوت الله. غير أنّ هذا الدور الرسوليّ للتلاميذ لن تبرز معالمه إلاّ في زمن الكنيسة بعد القيامة، لأنّه أثناء عمل يسوع التبشيريّ لم يكن للتلاميذ أيّ دور رسوليّ يُذكر، ما عدا ما ورد في مر ٦: ٧-١٣. كانت هذه بعثة محدودة الزمن والنشاط. لأجل ذلك، لم يطلق مرقس، وكذلك متّى (١٠: ٢)، لقب "الرسل" على التلاميذ إلاّ مرّة واحدة، عندما أخبر أنّ "الرسل اجتمعوا عند يسوع، وأخبروه بجميع ما عملوا وعلّموا" (٦: ٣٠).

---

(١٤) راجع مر ١: ٢٩؛ ٥: ٣٧؛ ٩: ٢؛ ١٣: ٣؛ ١٤: ٣٣؛ ١٦: ٧.

(١٥) راجع مر ٨: ٢٩، ٣٢؛ ٩: ٥؛ ١٠: ٢٨؛ ١١: ٢١.

(١٦) راجع حب ١: ١٥، ١٧؛ إر ١٦: ١٦.

وكلمة "الرسل" هنا لا تعني ذلك اللقب الذي أطلق على التلاميذ في زمن الكنيسة، وليس أثناء حياة يسوع الأرضيّة، بقدر ما تعني الأشخاص الذين كانوا مُرسلين من قِبَل يسوع (envoyés et non pas apôtres)(١٧). بالنسبة إلى مرقس، هذا الوقت ليس وقت رسالة، بل وقت مكوث مع المعلّم ووقت تلمذة.

هـ- بعد الدعوة، يترك الأخوان الأوّلان الشباك (تجرّد ماديّ)، أمّا يعقوب ويوحنّا فأباهما مع العمل (تجرّد معنويّ). لم يذكر مرقس أنّ الأخوين الأوّلَين تركا بيتهما، ليمهّد ربّما للآيات ١: ٢٩-٣١، حيث نرى سمعان ما زال يسكن في بيته الخاصّ مع عائلته، ومن بينها حماته. لكنّ بطرس يقول لاحقًا ليسوع: "ها قد تركنا نحن كلّ شيء وتبعناك" (١٠: ٢٨). لا نجد في النصّ أيّ أثرٍ لأمرٍ صدر عن يسوع يقضي بأن يترك تلاميذه كلّ شيء كشرط ليتبعوه، على عكس ما ورد في ١٠: ١٧-٢٧ مع الشابّ الغنيّ. هذا يعني أنّ تخلّيهم عن كلّ شيء إنّما جاء بملء إرادتهم وحرّيّتهم. هنا أيضًا نقع على مثاليّة مرقس في سرده خبر الدعوة.

التلاميذ الأوّلون أيضًا وأيضًا نموذجيّون في طاعتهم، يطيعون فورًا ومن دون تردّد كلمة يسوع ذات السلطان: "تركا الشباك لوقتهما" (آ ١٨). "لوقتهما" (εὐθυς) هي من أحبّ المفردات على قلب مرقس، إذ نجدها عنده ٤١ مرّة، مقابل ٥ عند متّى، مرّة واحدة عند لوقا، و٣ عند يوحنّا.

في اللوحة الأولى، يستعمل مرقس الفعل الخاصّ بالاتّباع واللّحاق "تبعاه" (ακολουθεω)، بينما، في اللوحة الثانية، يغيّر التعبير فيصبح "سارا خلفه" (ἀπηλθον οπισω αὐτου). في هذا الاختلاف مدلول رائع: مكان التلميذ الطبيعيّ هو خلف المعلّم لا أمامه. عندما حاول سمعان، لاحقًا، تخطّي يسوع واعتراض طريقه، ردّه يسوع إلى محلّه الذي عليه أن يكون فيه. هذه هي المرّة

(١٧) راجع هذا في: John P. MEIER, *Un certain Juif Jésus*, pp. 89-92.

الوحيدة في العهد الجديد التي يكون فيها يسوع موضع معاتبة من أحد تلاميذه. حاول بطرس هنا أن يكون هو المعلّم فيفرض رغبته على يسوع، فاستحقّ لقبًا لم يُطلق على إنسان في العهد الجديد كلّه إلاّ عليه: "إرجع ورائي، يا شيطان"[١٨] (٨: ٣٣).

٢- مسيرة "مع" يسوع: "... لكي يكونوا معه" (٣: ١٤)

لبّى التلاميذ دعوة يسوع. فماذا بعد؟ من الحقائق التي أراد مرقس إظهارها في إنجيله هي أنّ يسوع ما إن رأى تلاميذه يمشون خلفه حتّى ابتدأ بالعمل. قبل ذلك، لم يأتِ بأيّ عمل. من الآن وصاعدًا يكون التلاميذ بصحبة المعلّم دائمًا، يكونون حيث يكون هو، لأنّه إن دعاهم في الأصل فلكي يكونوا معه: "فأقام منهم اثني عشر لكي يكونوا معه" (٣: ١٤). ينفرد مرقس بهذه الـ"مع" (ινα ωσιν μετ' αυτου)، فيصبح هدف الدعوة عنده: أن يكون التلميذ دائمًا خلف معلّمه ومعه. "رِجلهم على رِجله". يكفي أن ننظر إلى الأفعال بعد نصّ الدعوة الأوّل حتّى نجد أغلبها في صيغة الجمع لا المفرد، الأمر الذي حدا ببعض النسّاخ لاحقًا إلى التخفيف من وطأة الجمع لحساب المفرد. مثل على ذلك: "ودخلوا كفرناحوم" (١: ٢١)، أي يسوع والذين دعاهم؛ "جاؤوا" (١: ٢٩)، حيث القراءة بالجمع (ηλθον)، مضمونة أكثر من القراءة بالمفرد "جاء" (ηλθεν) غير المرقسيّة[١٩]. وفي أمكنة أخرى نجد الفعل بالمفرد، لكنّ النصّ

---

(١٨) في بعض الترجمات العربيّة نقرأ: "ابتعد عنّي، يا شيطان"، وهي ترجمة خاطئة، لأنّ التعبير اليونانيّ المستعمل هنا (υπαγε οπισω μου) يعني "إذهبْ خلفي"، "إرجعْ ورائي". هكذا لا يفصل يسوع سمعان عن جوقة التلاميذ بل يرجعه إلى المكان الذي عليه أن يكون فيه.

(١٩) تتكرّر الأفعال بصيغة الجمع في طول الإنجيل الثاني وعرضه، مثلاً في: ١: ٣٨؛ ٤: ٣٥؛ ٥: ١ (حيث نجد أيضًا قراءة مقابلة بالمفرد غير معتمدة عادةً)؛ ٦: ٣١-٣٢، ٥٣؛ ٨: ٢٢؛ ٩: ٣٣؛ ١٠: ٢٣؛ ١١: ١، ١٩ (قراءتان مقابلتان بالمفرد)؛ ١٤: ٣٢، إلخ.

يذكر التلاميذ صراحة بمعيّة يسوع[٢٠]. بكلمة، التلميذ لا يغدو إلاّ شخصًا "للمسيح": "من سقاكم كأس ماء على أنّكم للمسيح..." (٩: ٤١)[٢١].

التتلمذ إذًا هو أوّلاً وأخيرًا استصحاب للمعلّم وحياة مشتركة معه. وفي هذه الحياة المشتركة يتمّ اكتشاف شخصيّته رويدًا رويدًا. التلاميذ الذين لم يعرفوا مسبقًا شخصيّة الذي دعاهم، يبدأون من الآن مسيرة اكتشافه ومعرفته، ويبدأ هو أيضًا بتَلمذتهم للملكوت. من أجل ذلك، ربّما، لا ترد مفردة "تلميذ" (μαθητης)[٢٢] في نصوص الدعوة الأولى، ويتأخّر ظهورها لأوّل مرّة إلى ٢: ١٥ بعد دعوة لاوي، مع أنّ يسوع سبق ودعا أربعة منهم[٢٣]. المدعوّ لا يُسمّى تلميذًا ليسوع إلاّ بعد زمن من لحظة دعوته وبعد التزامه بالسير خلف المعلّم على الطريق ومشاركته إيّاه وباقي الجماعة الحياة المشتركة والتعليم. مسيرة التلمَذة هذه لا تتوقّف عند مرقس إلا نادرًا جدًّا، حيث يظهر يسوع وحيدًا من دون تلاميذه. في مر ٦: ١٤-٢٩ مثلاً، يقطع مرقس سياق خبره حتّى يورد قصّة هيرودس مع يسوع ومع يوحنّا المعمدان، من دون أيّ ذكر للتلاميذ، الذين سبقوا وذهبوا إلى الرسالة كما أمرهم يسوع. ولمّا عادوا واجتمعوا عند يسوع، ابتداءً من الآية ٦: ٣٠، عاد سير القصّة إلى طبيعته.

(٢٠) مثلاً: "وجلس معه ومع تلاميذه" (٢: ١٥)؛ "فانصرف يسوع إلى البحر ومعه تلاميذه" (٣: ٧)؛ "وانصرف من هناك وجاء إلى وطنه يتبعه تلاميذه" (٦: ١).

(٢١) نصّ متّى المقابل يوضّح معنى عبارة "للمسيح": "ومن سقى أحد هؤلاء الصغار... لأنّه تلميذ" (مت ١٠: ٤٢).

(٢٢) ترد مفردة μαθητης عند مرقس ٤٦ مرّة (منها ٤ مرّات بمعنى تلاميذ الفرّيسيّين ويوحنّا المعمدان)، مقابل ٧٢ عند متّى، و٣٧ عند لوقا، و٧٨ عند يوحنّا، و٢٨ في أعمال، ولا مرّة في باقي العهد الجديد. ولفظة "الاثني عشر" ترد ١١ مرّة عند مرقس، وتأتي دائمًا على هذا الشكل وليس "التلاميذ الاثني عشر"، كما هو الأمر عند متّى (١٠: ١؛ ١١: ١، وربّما ٢٠: ٧). أمّا لفظة "رسول" فلا ترد عند مرقس إلاّ مرّة واحدة في ٦: ٣٠ (مرّتين إذا حسبنا القراءة المقابلة في ٣: ١٤).

(٢٣) الأمر نفسه عند باقي الإنجيليّين. قارن بين مت ٤: ١٨-٢٢ و٥: ١؛ وبين لو ٥: ١-١١ و٥: ٣٠؛ وبين يو ١: ٣٥-٥١ و٢: ٢.

٣- مسيرة على "الطريق": "وكانوا سائرين في الطريق صاعدين إلى أورشليم" (١٠: ٣٢)

ومن الأمور المميّزة عند مرقس هو تركيزه على مرافقة التلاميذ ليسوع في طريقه نحو أورشليم. صحيح أنّ لوقا هو من أبرز أهمّيّة هذه المسيرة في إنجيله، خصوصًا ابتداءً من ٩: ٥١، لكنّ مرقس هو من ابتكرها وعنه أخذها لوقا وطوّرها. لمفردة "الطريق" (η οδος) معزّة خاصّة عند مرقس، إذ نجدها عنده ١٦ مرّة. وإن لم تكن كلّها ذات معنى لاهوتيّ ورمزيّ[٢٤]، فإنّ معظمها يهدف إلى تصوير يسوع في تجوال مستمرّ على طرقات الجليل وفي مسيرة لا تكلّ نحو أورشليم، أي نحو مصير دراماتيكيّ محاط بالأسرار ينتظره في تلك المدينة لينتهي على الصليب. عند مرقس، حدثُ يسوع نفسه ورسالته هما، ومنذ البداية[٢٥]، "طريق" نحو الصليب. هذا الطريق المرمَّز يتوضّح أكثر في القسم الثاني من الإنجيل (٨: ٢٧–١٠: ٥٢)، حيث ترد لفظة "طريق" ٧ مرّات من أصل ١٦ مرّة[٢٦]. رفقاء الطريق الدائمون هم التلاميذ، وعلى الطريق يتكلّم يسوع معهم (٩: ٣٣، ٣٤)، ويستوضح رأيهم (٨: ٢٧)، ويدعو آخرين غيرهم للمسير خلفه (١٠: ٤٦، ٥٢)، ويعلّمهم كيف يسيرون هم أيضًا على "طريق" الصليب (١٠: ٣٢). هو الأوّل وهم التالون، هو السبّاق وهم اللاّحقون: "وكانوا سائرين في الطريق صاعدين إلى أورشليم، وكان يسوع يتقدّمهم" (١٠: ٣٢).

على هذا الطريق ليس من صدفة، ووجود التلاميذ بالقرب من يسوع ليس أمرًا عفويًّا خاضعًا للمزاج البشريّ المتقلّب أو وليد رغبة عابرة عند يسوع، بل هو

---

(٢٤) كما في ٤: ٤؛ ٦: ٨؛ ٨: ٣.

(٢٥) هذا ما يوحيه استشهاد مرقس بملاخي النبيّ في بداية إنجيله: "هاءنذا أرسل رسولي قدّامك ليعدّ طريقك" (ملا ٣: ١). لكن عند ملاخي نقرأ: "فيعدّ الطريق أمامي"، وليس "طريقك". حوّر مرقس كلام ملاخي كي يجعل من الطريق المعدّ طريق يسوع بالذات.

(٢٦) لاحظ التضمين مع لفظة "طريق" بين بداية هذا القسم وآخره: "فسأل في الطريق تلاميذه..." (٨: ٢٧) // "فأبصر من وقته وتبعه في الطريق" (١٠: ٥٢).

نابع من إرادة داخليّة عميقة فيه، طالما فكّر فيها، عجنها وخبزها في نفسه. هذا ما انفرد مرقس في التعبير عنه عندما قال: "وصعد يسوع الجبل ودعا الذين أرادهم (ηθελεν)، فأقبلوا إليه" (٣: ١٣). وحده مرقس يزيد هذا الفعل المهمّ "أرادهم"، المستعمل في أصله اليونانيّ بصيغة الماضي المستمرّ. والمعلوم أنّ هذه الصيغة تدلّ على مدّة العمل الطويلة أو على استمراريّته وتكراره. دعوة التلاميذ إذًا ولدت في رحم ابن الله، في تفكيره وقلبه وعقله وإرادته، وليست وليدة صدفة، لأن لا صدفة في الله.

٤- مسيرةٌ كثيرةُ الخيبات: "أإلى الآن لا إيمان لكم؟" (٤: ٤٠)

لم تخلُ مسيرة يسوع مع تلاميذه من أوقات صعبة، على يسوع وعلى تلاميذه أيضًا. فكثيرًا ما أعرضوا عن فهم سرّه لغلاظة قلوبهم وقلّة إيمانهم، فتعرّضوا للتوبيخ، الشديد الوقع أحيانًا. كان مرقس قاسيًا على التلاميذ، فنقل من غير تردّد ولا تلطيف كلام يسوع القاسي في وجه تلاميذه. هذه سمة لمرقس لا يشاركه فيها أيٌّ من الإنجيليّين الآخرين. كيف عرض مرقس مسلسل إخفاق التلاميذ مع يسوع؟

في البداية، يحرص مرقس على رسم صورة إيجابيّة عن التلاميذ. فَهُم، ما إن دعاهم يسوع حتّى لبّوا النداء فورًا (١: ١٨، ٢٠؛ ٢: ١٤)؛ ومن بين المجموعة الكبرى، انتقى يسوع اثني عشر رجلاً حتّى يبقوا معه عن قرب (٣: ١٣)؛ هؤلاء أرسلهم ليبشّروا بالإنجيل، وزوّدهم بنعم أشفية ومواهب متنوّعة (٦: ٧، ١٣، ٣٠)؛ ولوحدهم أُعطي سرّ ملكوت الله (٤: ١١-١٢)؛ دافع عنهم عندما أخذوا يفركون السنبل يوم السبت (٢: ٢٣-٢٨)؛ وهم بدورهم ظهروا كمعاونين ليسوع فصنعوا له زورقًا كي لا تضايقه الجموع المحتشدة (٣: ٩). هذه البداية العسليّة ما عتمت حلاوتها أن خفّت ابتداءً من ٤: ١٣، حين عجز التلاميذ عن فهم معنى مثل الزارع، فكان من يسوع أن وجّه إليهم التوبيخ الأوّل:

"أما تفهمون هذا المثل؟ فكيف تفهمون سائر الأمثال؟". التوبيخ نفسه يتكرّر بعد كلام يسوع عن النجس والطاهر الذي أُغلق فهمه على التلاميذ: "ولمّا دخل البيت مبتعدًا عن الجمع، سأله تلاميذه عن المثل، فقال لهم: أهكذا أنتم أيضًا لا فهم لكم؟" (٧: ١٧-١٨).

بعد هذا التوبيخ توالت السبحة. في القارب في عُرض البحر، لم ينفع وجود يسوع، ولو نائمًا، ليطمئن التلاميذ عند هبوب العاصفة، فخافوا وسألوه التدخّل سريعًا لنجدتهم. فَسَّر يسوع خوفهم على أنّ لا إيمان لهم: "ما لكم خائفين هذا الخوف؟ أإلى الآن لا إيمان لكم؟" (٤: ٤٠). إنّ لفظة οὔπω تعكس طول المدّة التي قضاها الرسل مع يسوع، وبالرغم من طولها لا إيمان لديهم بعد. غير أنّ هذا التوبيخ سرعان ما تحوّل إلى خوف شديد امتلك التلاميذ ودفعهم إلى أن يتساءلوا حول هويّة يسوع: "من تُرى هذا حتّى تطيعه الريح والبحر؟" (٤: ٤١).

في معجزة تكثير الخبز والسمك (٦: ٣٥-٣٨)، الحوار الذي دار بين يسوع والتلاميذ دلّ على أنّهم لم يتخيّلوا للحظة أنّ المعلّم قادر على أن يحلّ المسألة كلّها بكلمة. العجز ذاته كرّره مرقس في روايته الثانية للمعجزة (٨: ٥-٦). وما أظهره يسوع من قدرة إلهيّة في إطعامه الآلاف، لم ينفع التلاميذ عندما رأوه ماشيًا على مياه البحيرة، فظنّوه خيالاً وصرخوا من خوفهم (٦: ٤٧-٥٢). هذا الربط بين المعجزتين أراده الكاتب نفسه عندما ختم معجزة المشي على المياه بقوله: "دهشوا غاية الدهش، لأنّهم لم يفهموا ما جرى على الأرغفة، بل كانت قلوبهم قاسية[٢٧]" (٦: ٥٢). بـ"قلوبهم القاسية" يتساوى التلاميذ مع الفرّيسيّين الذين سبق ليسوع وغضب منهم "لقساوة قلوبهم" (٣: ٥). هذا الاتّهام يحلو للعهد الجديد أن يكرّره مرارًا من بعد أن استعاره من أشعيا ٦: ١٠[٢٨]. هكذا

(٢٧) التعبير شديد الوقع، لأنّ اسم الفاعل "قاسية" πεπωρωμενη هو في حالة الحاضر التامّ (parfait) وليس الحاضر العاديّ (présent)، وكأنّ قساوة قلوب التلاميذ بلغت أوجها.

(٢٨) راجع مت ١٣: ١٥؛ يو ١٢: ٤٠؛ أع ٢٨: ٢٧.

تتكرّر مأساة الله، في القديم مع الأسباط الاثني عشر، وفي الجديد مع التلاميذ ومنهم الاثني عشر.

في مر ٨: ١٧-٢١، نجد سلسلة من الأسئلة التوبيخيّة، الفريدة في العهد الجديد من حيث شدّة وقعها ومن حيث توجّهها إلى سامعين مثل التلاميذ. "القلوب القاسية" تعود (آ ١٧). بل أكثر من ذلك: التلاميذ غدوا مثل أصنام، لهم عيون ولا يبصرون وآذان ولا يسمعون (آ ١٨). هذه كلمات وصف العهد القديم بها الأصنام الممقوتة جدًّا التي لا حياة فيها ولا نَفَس (راجع مز ١١٥: ٤-٦؛ ١٣٥: ١٦-١٧)، واستعارها الأنبياء ليوبّخوا الشعب الفاقد اللبّ المتمرّد الذي لم يشأ أن يفهم إرادة إلهه (راجع إر ٥: ٢١؛ حز ١٢: ٢)[٢٩]. هذا البطء في الفهم دلّ عليه مرقس أيضًا، بطريقة رمزيّة مبطّنة، من خلال الشفاء الصعب للأعمى في الخبر الذي يلي هذه السلسلة من التوبيخات (٨: ٢٢-٢٦). هم أيضًا غدت عمليّة شفائهم من عمى القلب صعبة للغاية.

وعندما أنبأ يسوع ثلاثًا بآلامه في أورشليم، كانت ردّة الفعل عند التلاميذ هي ذاتها في المرّات الثلاث: عدم الفهم والخوف. في المرّة الأولى، أخذ يسوع المبادرة وسأل تلاميذه بشكل صريح ومباشر عن هويّته هو: "وأنتم، من تقولون إنّي هو" (٨: ٢٧). وضع مرقس "وأنتم" في بداية السؤال، قاصدًا بذلك التشديد على رأي التلاميذ الشخصيّ. لا مهرب إذًا من الإجابة. يقوم بطرس ويتكلّم باسم التلاميذ ويعترف بمسيحانيّة المسيح، لكنّه ما لبث أن أمسك عن فهم جوهر هذه المسيحانيّة، فاعترض على كلام يسوع، الذي بدوره ما تأخر في نعته بلقب قويّ، "يا شيطان" (٨: ٣٢-٣٣). لماذا كلّ هذه القسوة؟ لأنّ بطرس رفض أن يرافق يسوع في "طريق" الصليب وأن يشاركه المصير نفسه. في الإنباء الثاني للآلام، خاف التلاميذ أن يسألوا عن معنى كلام يسوع، فظلّوا صامتين لأنّهم "لم

(٢٩) بينما ضمّن مرقس لائحته سبعة أسئلة توبيخيّة، نقّصها متّى إلى خمسة، مخفّفًا من وطأة قساوتها وحاذفًا كلّ تلميح إلى كلام الأنبياء (قارن مع مت ١٦: ٨-١١).

يفهموا هذا الكلام" (٩: ٣٢). وفي المرّة الثالثة، كانت ردّة الفعل من نصيب ابني زبدى يعقوب ويوحنّا (١٠: ٣٥-٤٠)، اللذين تبيّن من خلال سؤالهما يسوع أن يجلس الواحد منهما عن يساره والآخر عن يمينه، أنّهما لم يفهما شيئًا من كلامه السابق حول غاية مسيحانيّته. مفارقة غريبة! في الوقت الذي أخذ فيه سرّ يسوع يصبح أكثر جلوًّا -كمسيح مصلوب في أورشليم- يصبح عدم فهم التلاميذ لهذا السرّ أكثر حدّة.

في رواية الآلام، تكتمل مأساة يسوع مع تلاميذه وتبلغ أوجها. يهوذا الذي خانه يوصف تكرارًا على أنّه "أحد الاثني عشر" (١٤: ١٠، ٢٠، ٤٣). خيانته تتعمّم على التلاميذ كلّهم: "تركوه كلّهم وهربوا" (١٤: ٥٠). أمّا بطرس، التلميذ الرئيس، فلم يجرؤ إلاّ على اتّباعه "عن بعد" (١٤: ٥٤)، مستبقًا بذلك رواية إنكاره المعلّم ثلاث مرّات (١٤: ٦٦-٧٢). بعد ذلك، نشهد غيابًا تامًّا للتلاميذ عن مشاهد الآلام في الجلجلة. غابوا وحضر مكانهم النسوة. هنّ أيضًا كنّ "ينظرن عن بعد" (١٥: ٤٠).

ولكي يترك مرقس بصمة خاصّة ينفرد بها عن باقي الإنجيليّين، تكلّم عن شاب كان من أتباع يسوع، ولّى هاربًا عريانًا عندما حاولوا الإمساك به (١٤: ٥١-٥٢). تُرى من هو هذا الشاب المجهول الاسم والهويّة؟ نظريّات كثيرة صدرت. منها ما يقول إنّه مرقس الإنجيليّ بالذات، وأخرى تقول إنّه أحد التلاميذ، وأخرى تزعم أنّه شخص خياليّ من ابتكار الإنجيليّ، إلخ. لكن لماذا القفز فوق قصد مرقس؟ ألم يتعمّد قصدًا إخفاء هويّة هذا الشاب، كي لا يهتمّ القارئ بهويّة هذا الأخير بل بعمله الجبان؟ ألا يختصر مرقس في شخصيّة هذا الشابّ كلّ تلميذ "مشى مع"(٣٠) المعلّم وتبعه كلّ هذه المدّة، وفي وقت الشدّة تخلّى عنه؟ ألا يرمز العري إلى حالة الإفلاس والخوف الشديد عند التلاميذ؟

(٣٠) تبدأ الآية ١٤: ٥١: "وتبعه شاب..."، والفعل المستعمل هو συνακολουθεω وهو فعل الدعوة بامتياز.

نكتفي بهذه الأسئلة ونترك التوسّع في هذا النصّ لمداخلة أخرى في هذا المؤتمر ستتطرّق إلى هذا الموضوع الشيّق.

٥- وبعد الخيبات لقاء: "يا أولادي..." (١٠: ٢٤)

بعد هذا العرض، يبقى السؤال: لماذا صوّر مرقس التلاميذ بهذه الصورة السلبيّة؟ لماذا لم يكن حظّهم عنده أفضل من حظّ أهل الناصرة المتعثّر (٦: ١-٦)، وحظّ ذوي يسوع المشككين (٣: ٢٠-٢١)؟ كان القارئ ينتظر من التلاميذ موقفًا أكثر تفهمًا لسرّ يسوع. فإذ بهم، هم أيضًا، غريبون عن أورشليم. لماذا؟ يجيب سيمون ليغاس، أحد الشرّاح الفرنسيّين والمتخصّص في إنجيل مرقس، إنّ مرقس قلّما اهتمّ بأن يقدّم لقرّائه، من خلال التلاميذ، أمثالاً في بطولة الإيمان. لم يُرِد لنفسه صفة مؤرّخ قدّيسين أو مجمّل سير أبطال في الإيمان (hagiographe). هو أوّلا وأخيرًا إنجيليّ، وبطل إنجيله يسوع وليس التلاميذ، وحبكة إنجيله من بدايته إلى نهايته "طريق" يسوع أي سرّه كمسيح.

هذا الموقف السلبيّ من التلاميذ، يضيف ليغاس، يُفهم بشكل أفضل إذا أخذنا أيضًا بعين الاعتبار المحيط الكنسيّ الذي كانت تعيش فيه جماعة مرقس. كانت جماعة تعاني الأمرّين من جرّاء الاضطهادات. هذه الاضطهادات كانت للبعض مناسبة من ذهب لكي يبرهن عن قوّة إيمانه بالمسيح، وللبعض الآخر سبب عثرة وخيانة وخوف. أن تكون مسيحيًّا في ذلك الزمان لم يكن بالأمر الهيّن والسهل، ليس فقط بسبب وطأة الاضطهاد الخارجيّ، بل أيضًا بسبب فلسفة هذا الإيمان الجديد: كيف يمكن للمؤمن أن يتصالح مع مفهوم غريب كمفهوم الصليب؟ كان منطق الصليب لكثيرين عثرة وسببًا لهجر المسيح(٣١).

---

(٣١) Cf. Simon LEGASSE, *Marco*, éd. Borla (pour la traduction italienne) Roma 2000, p. 53.

هناك إذًا صورة قاتمة لا نستطيع أن نتفادى رؤيتها في إنجيل مرقس. مع ذلك، وبالرغم من هذا التأزّم في علاقة يسوع مع تلاميذه، يترك مرقس بصيص أمل مُضاء. ففي خضمّ الخيبات، أي في قلب الفصل العاشر من الإنجيل، يصرّ يسوع على مناداة تلاميذه بـ "يا أولادي" (τεκνα، ١٠: ٢٤). متّى ولوقا أوردا هذه الآية من دون هذه المناداة (مت ١٩: ٢٣؛ لو ١٨: ٢٤). وتكتسب هذه المناداة أهمّيّة إضافيّة عندما نعلم أنّها المرّة الوحيدة في العهد الجديد التي ينادي فيها يسوع تلاميذه بهذا اللقب(٣٢). التلميذ يبقى ابنًا للمعلّم بالرغم من كلّ الخيبات التي يظهرها.

وبقدر ما هي كبيرة الصعوبة، بقدر ما هي عظيمة قدرة الله. فالروح القدس لا يزال يعمل وقت الشدّة: "لستم أنتم المتكلّمين، بل الروح القدس" (١٣: ١١). وكما كان بطرس الناطق الدائم باسم التلاميذ، ها هي دموعه (١٤: ٧٢)، التي تختصر أيضًا دموع التلاميذ، تفتح آفاق التوبة والمصالحة له ولهم. وفي يوم القيامة، في الختام، لا يتأخّر يسوع في أن يضرب موعدًا للقاء تلاميذه المشتّتين في الجليل (١٦: ٧)(٣٣). لقد أراد جمعهم من جديد وتجديد الثقة بهم متخطّيًا ضعفهم. كان يسوع يعلم مسبقًا بما سيصيبهم من خوف، فتفهّم موقفهم المتخاذل: "ستعثرون بأجمعكم، لأنّه كُتب: سأضرب الراعي فتتبدّد الخراف. ولكن بعد قيامتي أتقدّمكم إلى الجليل" (١٤: ٢٧–٢٨). هكذا تنتصر المصالحة على الضعف، وتبلغ التلمذة نهايتها السعيدة.

---

(٣٢) هناك تلميح غير مباشر مشابه لهذه المناداة في مت ١٧: ٢٦: "البنون [جماعة التلاميذ] معفَون إذًا [من ضريبة الهيكل."]

(٣٣) هناك تخصيص لشخص بطرس في نصّ القيامة ينفرد به مرقس عن باقي الإنجليّين، إذ يذكر اسمه منفردًا عن باقي التلاميذ: "وقلن لتلاميذه ولبطرس" (١٦: ٧). هذه إشارة واضحة من مرقس إلى تجاوز يسوع القائم إنكار بطرس له ثلاث مرّات.

٦- تلمذة مُلحّة: "وبدأ يعلّمهم" (٨: ٣١)

مقابل هذا العجز عن الفهم الذي بان عند التلاميذ، لا بدّ ليسوع من أن يتصرّف، وأن يكثّف من تعليمه، وأن يَجهد في التلمذة بوتيرة أشدّ حتّى لو اقتضى الأمر إعادة هيكلة لمفهوم اتّباع التلاميذ له. لأجل ذلك، ما ترك يسوع مناسبة إلا وعلّم فيها تلاميذه وشرح لهم على انفراد كلّ شيء. في الطريق نحو أورشليم، كان هناك الكثير من المحطّات التي فيها ينفرد يسوع مع تلاميذه، بعيدًا عن الجمهور. وفي أغلب الأوقات لم يكن الانفراد للراحة والخلوة فحسب(٣٤)، بل للتركيز في التعليم والتنشئة.

أوّل الغيث بدأ في ٤: ١٠: "فلما اعتزلَ الجمع، سأله الذين حوله مع الاثني عشر عن الأمثال". تخصيص التلاميذ يبلغ أوجه في ما يلي عندما قال يسوع: "أنتم أعطيتم سرّ ملكوت الله، أمّا الذين خارجًا (εξω)، فكلّ شيء يُلقى إليهم بالأمثال" (٤: ١١). هذه الـ"خارجًا" ملفتة للنظر، لا نجدها في النصوص المقابلة عند مت (١٣: ١١) ولوقا (٨: ١٠). التلاميذ هم من الداخل، لأنّهم أبناء الملكوت الخاصّون. التخصيص نفسه سبق لمرقس أن أشار إليه ولكن بطريقة رمزيّة معبّرة، عندما روى مشهد مجيء أمّ يسوع وإخوته إلى يسوع: "إنّ أمّك وإخوتك في خارج (εξω) الدار يطلبونك" (٣: ٣٢). ذوو يسوع هم أيضًا من "الخارج"، بينما "الجالسون حوله" (٣: ٣٤) الذين رمقهم بنظرة معبّرة، ومن بينهم طبعًا التلاميذ، هم أمّه وإخوته(٣٥). بموقفهم المشكّك والمعادي (٣: ٢١)، يضع ذوو يسوع أنفسهم خارج الملكوت، مثلهم مثل الخصوم الذين قرّروا منذ زمن قتل يسوع (٣: ٦)، ومثل أقاربه في الناصرة (٦: ٦).

---

(٣٤) كما في ٤: ٣٦؛ ٦: ٣١، ٤٥؛ ٨: ١٠؛ ١١: ١١، ١٩.

(٣٥) في نصّ متّى إشارة أوضح من مرقس إلى التلاميذ: "ثمّ أشار بيده إلى تلاميذه وقال: هؤلاء هم أمّي وإخوتي" (مت ١٢: ٤٩).

وأيضًا في ٤: ٣٤، إشارة إلى الانفراد: "وإذا انفرد بتلاميذه فسّر لهم كلّ شيء". التعبير المستعمل هنا هو κατ' ιδιαν(٣٦)، وهي عبارة تدلّ عادةً على الشيء الخاصّ والحميم، كالبيت مثلاً. والبيت عند مرقس له مكانة خاصّة. فهو المكان الحميم بامتياز، فيه تجتمع "عائلة" يسوع حوله. وفيه، بعيدًا عن الجمع، يعود يسوع ويفسّر لتلاميذه ما عجزوا عن فهمه: "ولمّا دخل البيت مبتعدًا عن الجمع، سأله تلاميذه عن المثل" (٧: ١٧)؛ "ولمّا دخل البيت، انفرد به تلاميذه وسألوه..." (٩: ٢٨)؛ "وجاؤوا إلى كفرناحوم. فلمّا دخل البيت سألهم..." (٩: ٣٣)؛ إلخ(٣٧). هذه المكانة الخاصّة للبيت جعلت منه رمزًا للكنيسة ولجماعة المؤمنين الذين من الداخل والذين يتميّزون عمّن هم "خارجًا".

وكلّما تقدّمت المسيرة كلّما اكتشف يسوع أنّ الصمت لم يعد يجوز، كما كان عليه الأمر بعد تسكين العاصفة (٤: ٤١)، فراح يجهد في تعليم تلاميذه. صبّ مرقس هذا التعليم في إطار فخم تميّز به عن باقي الإنجيليّن، وكأنّه وقت احتفاليّ بامتياز. هذا التعليم يتركّز أكثر في القسم الثاني من الإنجيل (٨: ٣١–١٠: ٥٢). في بدايته نقرأ: "**وبدأ يعلّمهم**" (٨: ٣١). هذه هي المرّة الأولى التي يكون فيها التلاميذ وحدهم موضوع تعليم يسوع. تعكس هذه البداية نيّة يسوع في إعطاء تنشئته التلاميذ من الآن وصاعدًا جدّيّة قصوى. هو مزمع أن يخبرهم بأمور خطيرة سوف تجري له في أورشليم: سوف يُسلم إلى أيدي الرؤساء ويُعذّب ويُقتل. ويزيد مرقس هنا ملاحظة ملفتة للانتباه: "وكان يقول هذا الكلام صراحة"(٣٨) (٨: ٣٢)، أي أنّ يسوع بدأ يعترف جهارًا بكلّ شيء. هذا الإنباء

---

(٣٦) نجد هذا التعبير ٧ مرّات عند مرقس في: ٤: ٣٤، ٦، ٣١، ٣٢؛ ٧: ٣٣؛ ٩: ٢؛ ١٣: ٣. في الآية الأخيرة شيء ملفت: ينفرد يسوع بطرس ويعقوب ويوحنّا وأندراوس، وإلى هؤلاء التلاميذ الأربعة فقط يلقي يسوع خطابه الاسكاتولوجيّ في الفصل الثالث عشر. عند متّى، المستمعون هم التلاميذ جميعهم (مت ٢٤: ١)، وعند لوقا الجمع كلّه (لو ٢٠: ٤٥).

(٣٧) راجع أيضًا ٢: ٢؛ ١٠: ١٠.

(٣٨) لا ترد عبارة παρρησια (صراحة، جهارًا) في مرقس إلاّ هنا.

بالآلام تكرّر ثلاث مرّات، وفي الثلاث يتوجّه يسوع بكلامه إلى التلاميذ لا غير. نقرأ قبل الإنباء الثاني: "ومضوا من هناك فمرّوا بالجليل، ولم يرد أن يعلم به أحد، لأنّه كان يعلّم تلاميذه..." (٩: ٣٠)؛ وكذلك قبل الإنباء الثالث: "فمضى بالاثني عشر مرّة أخرى، وأخذ ينبئهم بما سيحدث له" (١٠: ٣٢). هذه الحصريّة تعطي أيضًا للخبر أهمّيّة مميّزة.

وفي مكان آخر، وعلى طريقة الربّانيّين، عبّر مرقس عن جدّية يسوع ومهابته في التعليم بفعل الجلوس والاستدعاء: "فجلس ودعا الاثني عشر وقال لهم..." (٩: ٣٥؛ راجع أيضًا ١٠: ٤٢). ولا ننسى في هذا الإطار لعبة النظر التي سبق وأشرنا إليها والتي بواسطتها يسبغ يسوع على كلامه جدّيّة يريد أن يلاحظها تلاميذه: "فالتفت ورأى تلاميذه فزجر بطرس قال..." (٨: ٣٣)؛ "فأجال يسوع طرفه وقال لتلاميذه..." (١٠: ٢٣).

وفي ختام المسيرة، عند أبواب أورشليم، في "الطريق"(٣٩) إلى الجلجلة، ومن بعد أن سمع يسوع تلاميذه يتجادلون عمّن هو الأكبر بينهم، اضطرّ إلى تصحيح مسار التفكير عندهم، وكأنّهم ما زالوا في البداية (٩: ٣٣-٣٧). وكذلك فعل عندما أتاه ابنا زبدى وسألاه الجلوس الواحد عن يمينه والآخر عن يساره في مجده (١٠: ٣٥-٤٠). الشيء نفسه يتكرّر في مناسبات أخرى: عندما منع يوحنّا واحدًا من استخدام اسم يسوع (٩: ٣٨-٤٠)(٤٠)؛ وعندما منع التلاميذ الأطفال من الاقتراب من يسوع وزجروهم (١٠: ١٣).

---

(٣٩) "الطريق" مكرّرة في هذا النصّ مرّتين (٩: ٣٣ و٣٤).

(٤٠) هذه هي المرّة الوحيدة في مرقس التي لا نرى فيها بطرس المتكلّم باسم جماعة التلاميذ بل يوحنّا.

٧- تلمَذة على الصليب: "من أراد أن يتبعني فليجحد بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (٨: ٣٤)

الفكرة الرئيسيّة في المقاطع السابق ذكرها هي واحدة: منطق الصليب، وبتعبير مرقسيّ، "طريق" الصليب. هذا الطريق، ليس طريق يسوع فحسب بل أيضًا طريق تلاميذه، كلّهم. عند الإنباء الثالث بالآلام، شمل يسوع تلاميذه معه في صعوده إلى أورشليم، فأتى الفعل بالجمع: "ها نحن صاعدون إلى أورشليم" (١٠: ٣٣). أورشليم هنا لم تعد مكانًا جغرافيًا فحسب بل رمز لمصير يسوع المنتهي على الصليب.

أمّا النصّ الرئيسيّ في التتلمذ على منطق الصليب فيأتي بعد إنباء يسوع بالآلام للمرّة الأولى. يقول النصّ: "ودعا الجمعَ وتلاميذَه وقال لهم: أيّ واحد أراد أن يتبعني..." (٨: ٣٤). ملفت هذا الاستدعاء للجمع مع التلاميذ. فهو يبيّن من جهة سلطة يسوع (مع فعل προσκαλεω)، ومن جهة أخرى رغبته في تعميم منطق الصليب ليس فقط على تلاميذه المباشرين بل على كلّ من يتبعه: "أيّ واحدٍ" (ει τις). يكتسب هذا النصّ إذًا بعدًا عالميًّا من حيث أنّه يختصر متطلّبات التتلمذ في أيّ زمان وفي أيّ مكان. ملفتٌ أيضًا تكرار فعل "تبع" مرّتين، في أوّل الآية وفي آخرها: "أيّ واحد أراد أن يتبعني،... ويتبعني"(٤١). يهدف هذا التكرار إلى إضفاء الأهمّيّة على عمليّة اتّباع يسوع: هي الغاية القصوى، ومن أجلها يجحد التلميذ نفسه ويحمل الصليب. من دون اتّباع يسوع لا معنى لجحود النفس ولحمل الصليب بحدّ ذاتهما.

في جملة شرطيّة، يطلق يسوع المبدأ ("أيّ واحد أراد أن يتبعني")، ثمّ يشرحه ويتوسّع فيه (آ ٣٤-٣٨). الجواب الأوّل: "فليزهد في نفسه"، حرفيًّا "فليجحد

(٤١) خفّفت بعض المخطوطات من حدّة هذا التكرار، فاستبدلت "أن يتبعني" الأولى بـ"أن يأتي" (ελθειν). لكن "أن يتبعني" تفرض نفسها بقوّة.

بنفسه"(٤٢). هكذا، يصبح التتلمذ ليسوع عمليّة جحود بالذات، وامتناعًا في جعل الذات محورًا للوجود، وعدم وضع الأنا في المكان الأوّل. هناك تقليد مسيحيّ يشرح هذا الفعل على أنّه تخلٍّ عن الخيرات المادّيّة لصالح يسوع. لكنّ المعنى الأصليّ لهذا الفعل أقوى بكثير: لم تعد الأنا تحيا، بكلمات بولس الرسول، بل هو المسيح من يحيا فيها (راجع غل ٢: ٢٠).

الجواب الثاني: "ويحمل صليبه". طالما لجأ يسوع إلى مفردات قويّة يعبّر فيها عن أفكاره وطروحاته، لكن أن يدعو من يريد أن يتتلمذ له إلى حمل الصليب، فهذا من دون شكّ التعبير الأكثر قوّة واستهجانًا بين أقواله(٤٣). يعلم يسوع مسبقًا وقع تعبيره هذا على سامعيه من أبناء فلسطين في القرن الأوّل. كان الصليب بالنسبة إليهم أرهب وأفظع ميتة يمكن أن يُحاكم بها من لا يتمتّع بامتياز المواطنيّة الرومانيّة. كان الطريقةَ الأكثر عنفًا التي بها ينهي إنسان ما حياته ويودّع أهله وأقرباءه ويقضي على حاضره ومستقبله. بكلمة، كان الصليب الفشل الأكبر لمشروع الحياة، والخسارة الجسيمة لخيرات الدنيا. لأجل ذلك، يدعو يسوع، بكلامه هذا، كلّ من أراد أن يتتلمذ له إلى أن يحسب مسبقًا الثمن الباهظ الذي يجب أن يدفعه إذا تتلمذ له(٤٤). كلام يسوع واضح وغاية في الجدّيّة: طريق التتلمذ صعب، فيه قساوة كقساوة الصليب، فلا يحاولنّ أحد سلوك طرقات متفرّعة سهلة لا توصل أصلاً إلى الهدف.

---

(٤٢) الفعل ذاته απαρνεομαι يُستعمل لوصف الجحود في الإيمان (راجع ٢مك ٨: ٧؛ ١٠: ١٥)، ولإنكار بطرس ليسوع (١٤: ٧٢؛ الصيغة البسيطة للفعل αρνεομαι تستعمل في الآيات السابقة ١٤: ٦٨ و٧٠).

(٤٣) يؤكّد جان–بول ماير، مع غيره من الباحثين، نسبة هذا التعبير إلى يسوع التاريخيّ. في ما يلي، أنقل عن جون–بول ماير من كتابه: John P., MEIER, *Un certain Juif Jésus*, p. 67-70 .

(٤٤) لأجل ذلك، نرى لوقا يضع متطلّبات التلمذة (لو ١٤: ٢٦–٢٧) في إطار آخر مختلف عن مرقس، قبل المثلين الخاصّين به: مثل الرجل الذي يحسب كلفة البرج قبل البدء ببنائه (١٤: ٢٨–٣٠)، ومثل الملك الذي يخطّط قبل أن يذهب للحرب (١٤: ٣١–٣٢).

هناك تفسير آخر للدعوة إلى حمل الصليب: هناك من يقرأ هذا النصّ على ضوء نصّ حزقيال النبيّ: "وقال الربّ للرجل اللابس الكتّان، إجتز في وسط المدينة، في وسط أورشليم، وارسم التاو(٤٥) على جباه الرجال" (حز ٩: ٤). الفكرة نفسها نجدها في سفر الرؤيا: "ملاك ينادي أصحابه: لا تُنزلوا الضرر بالبرّ والبحر ولا بالشجر، إلى أن نختم عبيد إلهنا على جباههم" (رؤ ٧: ٣). الصليب في النصَّين علامة فارقة بها يعرف الرجال عندما يمرّ ملاك الربّ المبيد فلا يقتلهم. هو إذا علامة خلاص ونجاة، لأنّه كان علامة هويّة وانتماء. هكذا، عندما دعا يسوع سامعيه إلى اتّباعه، حثّهم على ألاّ يجعلوا من أنفسهم محورًا لوجودهم وأن ينتموا إليه كامل الانتماء، بمعنى أن يشاركوه مصيره أيًّا يكن هذا المصير، حتّى لو أفضى بهم الأمر إلى الصليب. مقياس التتلمذ الأصيل ليس في تحقيق الذات، بمعنى نجاحها وازدهارها، بل في مشاركة المعلّم مصيره والوفاء لمسيرته على طريق الصليب. على هذا الوفاء أن يصبح مسار حياة دائمة عند التلميذ وليس مجرّد لحظة عابرة. هذا ما توحيه صِيغ الأفعال المستعملة: "فليجحدْ" و"ليحملْ" في الأمر بصيغة الماضي البسيط (aoriste)، أمّا "ليتبعني" ففي الأمر بصيغة الحاضر (présent). لم يعد قرار الاتّباع الأوّلي الذي جرى في الماضي هو المهمّ بل مسيرة الحياة الحاضرة.

خاتمة: روحانيّة مرقسيّة للتتلمذ

في شهادته النادرة عن يسوع *(Testimonium flavianum)*، قال المؤرّخ اليهوديّ فلافيوس يوسيفوس: "هو معلّم أولئك الذين يقبلون بفرح حقائق... الذين أحبّوه سابقًا لا يكفّون عن محبّته"(٤٦). هكذا حفظ لنا التاريخ شهادة عن

(٤٥) "في الآراميّة القديمة، كان حرف التاء يكتب بشكل صليب" (مداخلة قام بها الأب غابي أبو سمرا المختصّ باللغات القديمة، أثناء عرض هذه المحاضرة في المؤتمر الكتابي).

(٤٦) فلافيوس يوسيفوس، **العاديّات اليهوديّة**، 18.3.3 § 63-64، وهذه هي الترجمة الفرنسيّة للنصّ:
Le maître de ceux qui reçoivent avec plaisir des vérités... ceux qui l'avaient d'abord chéri ne cessèrent pas de le faire.

التلاميذ. هم أحبّوا يسوع وثبتوا في محبّته، وبهذه المحبّة عرفهم التاريخ. محبّة المعلّم تبقى الشرط الأوّل لمن أراد أن يتتلمذ ليسوع. أليس هذا ما حاول مرقس التعبير عنه لمّا وضع نصّ دعوة التلاميذ الأوّلين في بداية إنجيله؟ إذا تبع هؤلاء يسوع، فلأنّهم أحبّوه، أمّا التعرّف على المعلّم، فلا بأس يأتي لاحقًا.

رهان على الله

قصّة كلّ تلميذ، في أيّ زمان ومكان، تشبه قصّة سمعان ورفاقه. ليس عليه أن يفهم كلّ شيء من أوّل الطريق. فاكتشاف شخصيّة المعلّم تأتي شيئًا فشيئًا، مع مرور الأيّام والسنين، وعبر الخبرات المتتالية معه. لا بدّ للمعلّم من أن يوبّخه أحيانًا لقلّة إيمانه، أو لطلبه المفرط للضمانات أو للمعرفة المسبقة للخطط والبرامج. قد يقع التلميذ أحيانًا في فخّ الرفاهيّة الزائدة، أو بالأحرى في فخّ التخطيط الزائد، أمّا مع يسوع، فلا بدّ من المغامرة والرهان. إنّها مغامرة الإيمان، الذي يتنافى أحيانًا مع حاجة التلميذ للمعرفة أو للنظر: "طوبى لِمَن آمن ولم يرَ" (يو ٢٠: ٢٨). إنّها مغامرة إبراهيم الذي أطاع الربّ، وسار بحسب قوله من دون أيّة ضمانات مسبقة أو أيّة رؤية مستقبليّة واضحة (تك ١٢: ١-٤). تُرى كيف لإبراهيم أن يصدّق وعود الربّ، الذي أمره بالانطلاق والمسير وراءه، وامرأته العاقر أمامه تذكّره دائمًا باستحالة إنجاب ذرّيّة يفوق عددها رمال البحر؟ تُرى أيّ اطمئنان تسلّل إلى نفس موسى، وهو يكلّم الله عبر علّيقة تشتعل فيها النار ولا تحترق (خر ٣: ١-٦)؟ إنّه لمنظر يوقع في الإبهام وعدم الفهم، وما على موسى، بالتالي، إلاّ أن يؤمن ويسير. الطلب الزائد للضمانة يشكّك في مصداقيّة الربّ وفي دعوته التلميذ إلى المسير وراءه. بعض الضباب ضروريّ لاختبار إيمانه بالذي دعاه. سيره وراءه عليه أن يكون وليد مجّانيّة خالصة منزّهة عن أيّة منفعة. فهو إن تبعه، فلأجله هو، وهو فقط، وليس لأنّه إله أراه "المنّ والسلوى"، أو لأنّه يضمن له مستقبلاً زاهرًا، أو شيخوخةً صالحة، أو مركزًا

مرموقًا، أو مالاً وفيرًا، أو سمعةً طيّبة، أو جماعةً حاضنة، أو رئيسًا متفهّمًا. ضمان التلميذ الوحيد هو الله نفسه وكلمته الثابتة التي لا تتغيّر، أمّا الباقي فيزول ويذهب.

رهان على التلميذ

وإذا كان التتلمذ هو رهان التلميذ على الله، فهو أيضًا رهان الله على التلميذ. ألم يراهن يسوع، عندما دعا حفنةً من الصيّادين، العفويّين، ليسيروا وراءه ويرسلهم ليبشّروا باسمه؟ ألم يواجه يسوع، مرّات عديدة، تجربة الوقوع في الإحباط واليأس من تلاميذه الثقيلي الذهن: "أيّها الجيل الكافر، حتّامَ أبقى معكم؟ وإلامَ أحتملكم؟" (مر ٩: ١٩).

في القديم، ألم يراهن الله على إبراهيم، ذلك البدويّ المتنقّل و"الآراميّ التائه" (تث ٢٦: ٥)، الملعون في جسد امرأته المائت؟ ألم يخاطر الله أيضًا بدعوته موسى، ذلك الإنسان الذي "ليس رجل كلام...، ثقيل الفم وثقيل اللسان" (خر ٤: ١٠)، "المسكين جدًّا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض" (عد ١٢: ٣)، الذي يذيبه الخوف من مجابهة شعبه وملك مصر؟ لقد برع بولس، كعادته، لمّا تكلّم عن منطق الربّ في اختياره البشر: "ما كان في العالم من حماقة فذاك ما اختاره الله ليخزي الحكماء، وما كان في العالم من ضعف فذاك ما اختاره الله ليخزي ما كان قويًّا، وما كان في العالم من غير حسبٍ ونسبٍ وكان محتقرًا فذاك ما اختاره الله: اختار غير الموجود ليزيل الموجود، حتّى لا يفتخر بشر أمام الله" (١كور ١: ٢٧-٢٩).

تلاميذ "صيّادون"

هنا بالضبط نستطيع، ربّما، أن نلج عتبة الحكمة الإلهيّة في اختيارها صيّادين وميليشياويّين وغيرهم من صغار القوم. باختياره تلاميذ من هذا المستوى الاجتماعيّ، قد يكون يسوع قد قصد أن يبعث برسالتين اثنتين:

الأولى إلى التلميذ نفسه. إن اختاره المعلّم ليسير خلفه، فإنّ التلميذ يبقى "صيّادًا"، رجلاً منتخبًا من بين كثيرين، إنسانًا ككلّ بشر، ضعيفًا، سريع العطب. يبقى في التلميذ شيء من "الصيّاد"، من عالمه القديم، من إنسانه العتيق المتهوّر، العفويّ، السريع التأثّر. لنتذكّر مثل سمعان بطرس، الصيّاد الهوى والطبع. شخصيّته العفويّة الجريئة والمتهوّرة أحيانًا خلقت له الكثير من المتاعب والمشاكل مع معلّمه. اتّباعه ليسوع وقربه منه لم يُلغيا طبعه "الصيّاديّ": نراه يتحمّس، ويعترف، ويهدّد، ويرغي ويزبد، وبسرعة يندم، ويتخاذل، ويتراجع ويتوب. لأجل هذا ربّما أحبّه المسيح كثيرًا، وسلّمه زمام رئاسة جماعة التلاميذ. متعجرفو القلب ومتكبّرو النفس، حسب لاهوت مرقس، لا مكان لهم مع المسيح. لا يمكن أن يصحبه من أتاه كاملاً مكمّلاً، ممتلئًا من نفسه، واثقًا بخطواته كلّ الثقة. من أراد أن يتتلمذ للمسيح لا بدّ له من أن يمرّ بتجربة الفراغ، يعني أن يكون فارغًا من كلّ شيء حتّى يملأه المعلّم من كلّ ما عنده. "ها قد تركنا كلّ شيء وتبعناك" (مر ١٠: ٢٨)، هكذا يكون الفراغ. والفراغ هو استسلام كلّيّ بين يدي الربّ.

التلميذ "الصيّاد" هو إذًا تلميذ يعرف ذاته حقًّا، ويعرف أنّه لا يستحقّ أبدًا الدعوة السامية التي دُعي إليها، وإن دعاه المعلّم فليس لأنّه غنيّ المواهب بل بنعمة مجّانيّة من لدن الله. لهذا ربّما نرى مرقس يشدّد في إنجيله، أكثر من باقي الإنجيليّين، على البعد الإنسانيّ الضعيف للتلاميذ. التلميذ "الصيّاد" هو إنسان يتذكّر دائمًا من هو، ومن أين أتى، ومن بين من دعاه الربّ. هو إنسان يستوعب ضعفه، ويعرف أن يتوب إن خطئ، وأن يستغفر الله إن أنكره. هو إنسان يعرف أن يتخلّى بسرعة عمّا هو له، لأنّ لا شيء له، وأن يستسلم لمشيئة المعلّم، لأنّ في ذلك هواه وسعادته.

أمّا الرسالة الثانية فهي للناس أجمعين، وكأنّ الله يقول لهم: إنّ المختارين منكم هم بشر مثلكم لا ملائكة هابطة من السماء. هم "صيّادون" لهم هفواتهم

وأخطاؤهم، فعليكم، بالتالي، أن ترحموا خطيئتهم وتتفهّموا ضعفهم وترفعوهم إن هم سقطوا. يقترب مرقس هنا من تفكير القدّيس بولس الذي يصف التلميذ على أنّه "آنية من خزف" (٢كور ٤: ٧) سريعة العطب، تحمل طيب المسيح لكن في إطار ضعيف هشّ وسهل الكسر. وفي رسالته الأولى إلى أهل كورنثس، يستفيض بولس في شرح فكره ويقول مخاطبًا مراسليه، وعبرهم كلّ جيل في كلّ زمان ومكان: "إنّي أرى أن الله أنزلنا نحن الرسل أدنى منزلة كالمحكوم عليهم بالموت، فقد صرنا معروضين لنظر العالم والملائكة والناس. نحن حمقى من أجل المسيح وأنتم عقلاء في المسيح، نحن ضعفاء وأنتم أقوياء. أنتم مكرّمون ونحن محتقرون. ولا نزال حتّى هذه الساعة أيضًا نجوع ونعطش ونعرى ونُلطم ونشرّد، ونجهد النفس في العمل بأيدينا، نُشتم فنبارك، نُضطهد فنحتمل، يُشنّع علينا فنردّ بالحسنى. صرنا شبه أقذار العالم ونفاية الناس أجمعين، إلى اليوم" (١كور ٤: ٩-١٣).

نعمة الاختيار إذًا لا تلغي أبدًا الطبيعة البشريّة، ولا تمحو ميولها بل توجّهها، ولا تقيها التجارب بل تقوّيها لمجابهتها. هذه خبرة عاشها مرقس إمّا مع ذاته أو مع رسل الربّ وتلاميذه.

في ملكوت المسيح إذًا تنقلب المقاييس. إذا كانت الحظوة في ملكوت البشر من نصيب كبار القوم ووجهائهم، ففي ملكوت المسيح "الصيّادون" و"الصغار" (لو ١٠: ٢١)، هم الذين يملكون عن يمين الله وشماله. إنّهم أحقّ الناس أجمعين بذلك لأنّهم كانوا أوّل مَن اقتحم الملكوت و"اغتصبه" بالقوّة.